مصطفى الشكعة المُجاهد النبيل

محمد يوسف عدس

في إشارة عابرة ورد إسم الدكتورمصطفى الشكعة في مقالة سابقة ودّعتُ فيها صديقي الراحل الدكتور عادل غنيم .. فقد علمت أنه هو الشيخ الكبير الذى علّق على محاضرتى بإعجاب وحماس في "الجمعية المصرية للدراسات التاريخية" ونصح الحاضرين من الباحثين وطُلاب الدراسات العليا باتخاذ ها نموذجا يُحتذى في المنهج وأسلوب العرض.. ثم التفت إلى المنصّة متوجّها نحوى فنزلت إليه إكرامًا لسنّه ، فتصافحنا وهو يؤكد لى إعجابه وثناءه على المحاضرة والمحاضر .. وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها عليه شخصيًّا؛ إذْ قرأت له من قبل بعض كتبه دون أن أراه.

وفى هذه المقالة نتعرّض لهذه الشخصية الكبيرة بشيء من التفصيل فأقول:

لابد أن أعترف أننا أمام رجلٍ من طراز فذٍّ نبيل ، ذي معدن أصيل ، جاهد وتفوّق في تحصيل العلم و ترحّل كثيرًا في آفاق الأرض لتحصيل الخبرة والفهم لأوضاع المسلمين في العالم ، وانتهج طريق الإصلاح ؛ مستهديًا بمعرفته لحقيقة الخلل الذى أصاب المجتماعات والجماعات المنتمية إلى الإسلام بالاسم وهي تجهل حقائقه وأهدافه ومتطلّباته .. وكان جهادًا شاقًّا طويلًا استغرق أكثر سنوات عمره الذى بلغ أربعة وتسعين عاما من يوم مولده سنة ١٩١٧م إلى يوم وفاته سنة ٢٠١١م ،

هذا الرجل الذى ملأ الدنيا علمًا وحركة ونشاطًا ؛ و صارع الجهل المتفشّى والفساد الإداري وتصدى لإصلاح التعليم والجامعات بصف خاصة ، ولقي من السلطات السياسية المستبدة ألوانًا من المظالم ، وتعرض للاعتقال والتعذيب ، ولكنه لم يغير مبادئه ولا تراجع عن مسيرته في مناصرة الحقيقة ، والتمكين للإصلاح في كل مؤسسة تولى إدارتها .. فلما رحل في نهاية العمر لم يحفل برحيله إلا نخبة من أقرب أصدقائه وتلامذته ومريديه .. وأغمضت الدولة الرسمية عينيها عن مآثر الرجل وخدماته الجليلة وكأنها لم تكن..

لقد نشط الدكتور مصطفى الشكعة وجاهد جهادًا فكريًّ موصولًا في ثلاثة محاور متقاربة مترابطة من مجالات الفكر التنويري والإصلاحي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولًا- محور دراسات الحضارة الإسلامية وهو الملمح الأظهر في إنتاج هذا الراجل العظيم؛ حيث يبرز في صدره كتابه واسع الانتشار "معالم الحضارة الإسلامية" شاهدًا على اهتمامه الإسلامي الأصيل .. يعززه في ذلك كتابه الأشهروالأكثر انتشارًا " إسلام بلا مذاهب" ليعكس حلم الوسطية، ويبرز المخاطر التي تهدد بنية الاتحاد بين الشعوب المسلمة من جرَّاء التفرق والتشتت المذهبي ؛ وهو عمل موسوعي يعرض لنشأة الفرق الإسلامية متتبعًا حركتها وتطورها، وداعيًا إلى إسلام بلا مذاهب يقرِّب ولا يباعد، وإلى توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم ووضع الأسس لتجاوز الخلافات المذهبية في الإسلام،

وركّز على الوحدة الإسلامية الفكرية، فلا يوجد في رؤيته سوى إسلام واحد، والاختلافات بين المذاهب إنما تقتصر على الفروع دون الأصول .

ثانيًا- محور دراساته للأعلام البارزين الذين غذّوْا شجرة الحضارة الإسلامية ، وأسهموا، في تشييد صرحها .. وصلاح أمرها ، وعلى رأسهم شخصيات فذّة أمثال: أبو حامد محمد الغزّالي والإمام الشافعي وجلال الدين السيوطي .. وغيرهم من العلماء والمفكرين العباقرة. وإما دراسته المستفيضة لـ"البيان المحمدي" فتعتبر تتويجًا لمفهوم العناية بالعلم والقدوة التي ينبغي أن تتأسى بها الأمة جميعًا.

ثالثًا- محور الدراسات الأدبية لتراث الأمة العربية والإسلامية الإبداعي شعرًا ونثرًا ؛ وقد افتتح مصطفى الشكعة حياته العلمية بدراسة النثر العربي ممثّلا في عنايته المبكرة بدراسة بديع الزمان الهمذاني باعتباره أحد أكبر الناثرين العظام الذين وطدوا أركانه في مواجهة سيطرة الشعر العربي على الساحة الإبداعية.

هذه المحاور الثلاثة التى خدمها مصطفى الشكعة بالتأليف والتحقيق كانت ترجمةً واضحةً لما استقرَّ فى قلب الرجل على امتداد عمره الطويل .. ودعنى أقرر لك من واقع قراءتى لإنتاجه الفكري على اختلاف محاوره أن الوعْيَ بالحضارة الإسلامية ومنجزاتها هو المفتاح الصحيح لفهم عقلية الشكعة ووجدانه ؛ فقد رأى الرجل أن الإسلام هو جذوة النارالتى أضاءت كل منابر الفكر في الأجواء العربية والإسلامية و العالمية ، ومن أجل ذلك كانت [الحضارة إسلامية] بحكم النظر إلى عناصر التأسيس والميلاد والحفْز ، ولذلك لم يطلق عليها اسم "الحضارة العربية" كما كان سائدًا في عصره ، الذى تصدّرت فيه نخبة من المفكرين والكتاب العلمانيين كطه حسين وغيره .. وإنما وصفها الوصف الصحيح [الحضارة الإسلامية]؛ لأن الحقيقة والواقع يقرران أن جوهر انطلاق هذه الحضارة كان هو الفكر الإسلامي، بما تميّز به من أصول: التوحيد الخالص .. والعدل والمساواة .. وتقدير إنسانية الإنسان، وإعلاء قِيَمِ العلم والتعليم.

ولذلك نرى مصطفى الشكعة يتجاوز الحدود المادية التي توقف عندها العلمانيون المتغرّبون إذ اقتصر أفضلهم على بيان بعض إسهامات المسلمين في إقامة المنشآت والمستحدثات الحضارية ؛ كالآلات والمؤسسات التعليمية والمكتبات وغيرها- تجاوز هذا ليمسك بتلابيب المنارات الفكرية من مبادئ وأصول و معالم- لإدراكه أن هذا هو ما سيبقى ميراثًا لكل جيل قادم في مستقبل الأيام ؛ يدفعه للإنتاج المادي والفكري معًا على هَدْيٍ من تأمله واستيعابه لروح الإسلام وأصوله الفكرية.

ويرى الشكعة أن الحضارة الإسلامية قد قامت على الأسس الآتية:

** من حيث سياسة الحكم: كانت أبرز الأسس هي: رعاية التوحيد وإقامة العدل والمساواة بين الناس من خلال منظومات أبدعتها الحضارة الإسلامية متمثّلة في : الخلافة أو الإمامة والقضاء والحسبة والأوقاف وديوان المظالم . وقد رأي الشكعة أن الحضارة الإسلامية من

خلال هذه المؤسسات قد استطاعت أن تحقق في المجتمعات الإسلامية أعلى صور العدل والكفاءة.

** وفى مجال الفكر والثقافة أثبتت الحضارة الإسلامية تفوقها الكاسح بما أبدعته وحققته من واقع خصائصها المتميزة والفريدة ، وبما نقلته وحفظته للعالم من حضارات الأمم الأخرى كشاهد على قدرتها على قبول الآخر، وتقدير ما صلح من إنجازاته الفكرية والإنسانية .

** أبرز الدكتور مصطفى الشكعة دور الشخصيات المفكرة في صناعة الحضارة الإسلامية، واعتبرهم صمام الأمان لهذه الحضارة .. وقد اتضح هذا الملمح في مؤلفاته الفكرية؛ التي رصد فيها سِيَرِ وأفكار نخبة من العلماء .. وكشف عن جهودهم في نهضة الأمة وترقّيها في مدارج الكمال .. من أمثال الكندي، وأبي حنيفة الدينوري و الإمام الشافعي ، وأبي زيد البلخي، والفارابي، وأبي حيان التوحيدي، وابن مسكويه...

** و يربو فضل الشكعة على غيره من المفكرين في التفاته إلى الآثار الأدبية في الكتابة العربية باعتبارها ثمرة من ثمار الحضارة الإسلامية ؛ فقد رأي الشكعة بثاقب نظره أن الإنتاج الأدبي للمسلمين في الشعر والنثر عبر قرون من الزمن قد تأثر بالثقافة الإسلامية ومبادئها الأخلاقية بدرجات متفاوتة ؛ يستوى في هذا من كان حريصًا على ممارسة الشعائر الدينية ، ومَنْ أهملها أو غفل عنها .. أما من تمرّد عليها وكذّب تعصُّبًا وكُرهًا فإنه يفعل هذا وهو يعلم بافترائه على الحقيقة.

يشهد بهذا ما وردر في كتابيْ مصطفى الشكعة: "الأدب في موكب الحضارة" ، و "مناهج التأليف عند العلماء العرب".. ويضرب أمثلة على انعكاس القيم الإسلامية في الإنتاج الأدبي: كالحفاوة بالكتب والأقلام وأدوات العلم.. حتى أنهم وظّفوا الشعر لينهض بمهمة التعليم وتيسيراستيعاب العلوم على الناشئة -في سابقة لم تظهر في أي حضارة أخرى.. وقد تمثل هذا الجهد التعليمي في نظم العلوم شعرًا ، فيما عُرف في تاريخ الأدب العربي بالأراجيز .

ولم يقتصر جهد الشكعة في كل هذه المجالات على التأليف والكتابة ، وإنما تخطاه إلى الجوانب العملية والتطبيقية ؛ وكان الحافز إلى هذا اقتناعه العميق بأن تدريس الحضارة الإسلامية وعلوم اللسان العربي ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها فى الجامعات والأقسام العلمية المختلفة.. ومن أبرز عناصر هذه الجوانب:

١- دراسة أصول ارتقاء الحضارات وانهيارها من خلال ما ورد في القرآن والسنة النبوية.
٢- دراسة إسهام علماء الإسلام الكبار؛ كشْفها وتحليلها وتقييمها.
٣- دراسة جهود المفسرين وعلماء الحديث والسنة، ومفكرى الإسلام في علوم القرآن، وتفاسيره، وجمع السنة وشروحها، وفى مناهج التأليف العربي.
٤- دراسة الأبعاد السياسية والفكرية والاجتماعية التي تحقق وحدة الأمة، وتعكسها.

من هذه التوجهات نستطيع ان نلمس ما يميز جهود الشكعة في خدمة الأمة المسلمة المعاصرة.. عززها بتخريج المئات من طلابه الذين تعلموا على يديه في الجامعات ومن خلال إشرافه وتوجيهاته لهم في موضوعات أطروحاتهم لدراسة الماجستير والدكتوراة.

كذلك .. عندما تولى مسئوليات في إدارة الجامعات المصرية- كانت له مواقف أخلاقية واجتماعية مشهودة وقف فيها صامدًا أمام محاولات أصحاب السلطة استغلال نفوذهم وتعدِّيهم على استقلال الجامعات ، واختراق مبادئ العدل والمساواة ؛ من هذه المواقف ما اشتهر عنه - في عصر السادات -وكان الشكعة عميدا لكلية الآداب ، بجامعة عين شمس ؛ فقد رفض رفضًا قاطعًا أن تتميز "جيهان" -زوج السادات - عندما أرادت أن تلتحق بهذه الكلية على أن تمتحن بشكل يظهر تميُّزها عن بقية الطلاب فرفض وتمسك بالرفض حتى انتقلت إلى جامعة القاهرة بعيدًا عن آداب عين شمس.. وكان هذ نموذجًا يندر أن يتكرر في زمن النفاق .. والانهيار العلمي والأخلاقي..

وإذا كان لابد من مزيد من التعريف بهذه الشخصية الفريدة فلْنوجز لكم طرفًا من سيرته التعليمية والوظيفية: فقد نشأ بالغربية وحفظ شطرًا من القرآن فى كُتّاب القرية وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس طنطا .. وتخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة على يد أساتذة كبار ؛ أمثال طه حسين وعبد الوهاب عزام وأحمد أمين وأمين الخولى ، وقد تخرج في عام ١٩٤٤، ثم حصل على درجة الماجستير في الآداب عام ١٩٥١، ودرجة الدكتوراه عام ١٩٥٤م .

وبدأ حياته العملية مدرسًا بالتعليم الثانوي ، ثم خبيرًا بالتخطيط الاجتماعي ، ثم عمل بمؤسسة اليونسكو فى مقرها بقرية "سرس الليان" " بمحافظة المنوفية.. ومن مغامراته في العمل أنه انتُدب مدرّسًا لمدة عام واحد في لبنان ، وعام آخر في اليمن ، حيث عُيِّن معلمًا في كلية المعلمين هناك .. يقول:
"نشأت بيني وبين إمام اليمن [حاكمها] صلة، فاستدعاني إلى مكتبه أنا وزملائي المصريين، وأصدر قرارًا بتعييني مديرًا للإذاعة، ثم أضيف إليها الدعاية، ثم أضيف إليها وظيفة أمين عام لمجلس الوزراء، ثم وظيفة مدير مكتب الإمام نفسه ؛ فإذا بي أجد نفسى وأنا ما زلت في العشرينيات من عمري- أحكم اليمن، تقريبًا" ...!

وعندما أعلنت جامعة عين شمس عن وظيفة "مدرس أدب" خالية انتقل مصطفى الشكعة لهذه الوظيفة عام ١٩٥٦ ، ثم شغل فيما بعد منصب العميد بنفس الكلية.. وانتُدب للعمل مستشارًا ثقافيًا بواشنطن بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٥.. وبعدها أعير للتدريس بجامعة بيروت العربية، ثم جامعة أم درمان بالسودان .. كما شغل منصب عميد كلية بجامعة الإمارات. ويُذكر للدكتور مصطفى الشكعة أنه كان سببًا في إدخال تدريس اللغة العربية في كثير من الجامعات الأمريكية أثناء إقامته في الولايات المتحدة..

وكانت له علاقات بالعديد من مفكري عصره، منهم : أساتذته الذين درّسوا له من قبل في كلية الآداب .. إلى جانب آخرين مثل: مصطفى صادق الرافعي .. ومن الصدف المثيرة كما

يحكى الشكعة أنه عندما بدأت مؤلفاته، كان الرافعي من بواكيرها، حيث طلب منه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن يكتب مقدمة لإصدارةٍ من كتابه "إعجاز القرآن"- فكتب مقدمة مستفيضة استغرقت ٨٠ صفحة ، لكي تكون مدخلًا يسهِّل على القارئ فهم لغة الرافعي وعمق فكره .. يقول الشكعة: " ولكنى فوجئت بالمقدمة وحدها يُصدرِها المجلس في كتاب مستقل.."

كذلك كانت له صلات وثيقة بالمفكر الكبير عباس محمود العقاد ، وهو يقرّ بفضله ومميّزاته الأخلاقية والعلمية .. حيث يقول: لقد عرفت العقاد؛ كشخصية خصبة معطاءة وموسوعية، وكنت ألتقي به في مكتبة الأنجلو، حيث كنا نجلس سويًّا نتسامر ؛ فالعقاد، على خلاف ما يرى كثيرٌ من الناس، كان شخصيةً مهذبةً مؤنِسة.. أيّ حديث معه يمكن أن يُكتب مقالًا.. وهو من القلة [المبدعة] الذين هضمت الدولة حقهم.

من بين مناصبه التي تولَّاها خارج الجامعة : كان عضوًا فى مجمع البحوث الإسلامية ، و ئيسًا للجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .. وعضوًا بلجنة الحوار الإسلامي المسيحي بالأزهر الشريف. وقد حصل الشكعة على عدد من الجوائز منها: وسام الجمهورية من الطبقة الرابعة سنة ١٩٥٩ ، ووسام الجمهورية من الطبقة الثانية سنة ١٩٧٧ وجائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٨٩م.

ومما يُحكى عنه وهو عضو في مجمع البحوث الإسلامية أنه حرّض المجلس على أن يتصدّى لمحاولة نسائية سنة ٢٠٠٩م- تمرير تعديلات على قانون الأحوال الشخصية .. رأي فيها مخالفات شرعية صريحة .. قال عن أصحابها أنهم يجهلون الإسلام والشريعة جهلًا مُزريًا أو أن لهم أجندة خاصة مع أعداء الإسلام يريدون تقويض الدين والقضاء على أحكامه الشرعية..

هذه سماتٌ عبقرية لشخصية الدكتور مصطفى الشكعة المجاهد النبيل ، الذى أفنى عمره في خدمة العلم والوطن ، وضرب المثل الأعلى في تمسكه بالقيم الأخلاقية الرفيعة ، والالتزام في كل ما أنتج من فكر وعمل: أن يكون لوجه الله ، وان يستعصم بغاياته النبيلة في إصلاح الأمة والنهوض بها.. ولكن عندما وافته المنية أدارت الدولة ظهرها له .. ولم يودّعه إلى مثواه الأخير إلا قِلَّةٌ من أقرب الناس إليه ، ولفيف من طلابه ومريديه .. ندعو الله له بالرحمة والمغفرة .. وأن يجعل مثواه الجنة جزاء إخلاصه وإحسانه وتجرُّده في خدمة دينه والدفاع عنه ..

(نُشر المقال في جريدة الشعب بتاريخ ٢٠١٧/٧/٤م)